المحاضرة الثالثة:

تفسير الثقافة والصراع الدائم حول المعنى (1).

تمهيد:

لا جدال في أن مفهوم الثقافة هو أكثر المفاهيم ترددا في حقل الدراسات الثقافية، ولكن وعلى الرغم من أن هذا التوجه البحثي التعددي يستند إلى مفهوم الثقافة كأداة مركزية ضمن بحوثه، إلا أن ثمة ميلا إلى الاعتقاد بين الدارسين الثقافيين بأن الثقافة هي كل شيء ولا شيء بعينه في الوقت ذاته. إن هذا الوضع الغامض يستدعي بالضرورة قبل الخوض في المتاهات النظرية والمنهجية للدراسات الثقافية التحديد الدقيق –وإن كان الأمر حقا ليس بالسهل- لمفهوم الثقافة، ولو كان ذلك ضمن إطار تخصصات بعينها على غرار الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، الفلسفة والأدب.

إن هذه التخصصات في حد ذاتها لا تكاد تتفق داخل حدودها على مفاهيم واضحة للثقافة، فالأنثروبولوجيون يثيرون الكثير من الجدالات فيما بينهم حول ما يقصدونه بالثقافي والثقافة، والأمر عينه يتكرر بين علماء الاجتماع والنقاد الثقافيين، ومن الغريب أن المشتغلين في حقل الدراسات الثقافية ينطلقون بوعي من إدراكهم لهذه التجاذبات، ولكنهم يذهبون إلى ما خلفها ويناقشون الكثير من القضايا التي تتطلب بالفعل أن نقف على حدود واضح للثقافة.

1- مفهوم الثقافة أم مفاهيم الثقافة؟

يمتد حضور مفهوم الثقافة إلى خارج أسوار المؤسسات الأكاديمية، فهو يستخدم في سياق الحياة اليومية ضمن خطابات عديدة، ولكن من الواضح تماما أن المقصود به هو شيء يختلف جذريا عما يقصده به الأكاديميون. تنبغي الإشارة أولا إلى أن الأصول اللغوية لكلمة ثقافة تختلف ما بين اللغات، وهي تعني فيما تعنيه الكثير من المفاهيم التي ترتبط في غالبها بفكرة الفلاحة، وهذا الأمر راجع –إذا أخذنا برأي دينيس كوش Denys Cuche– إلى المسعى العلمي لتتبع صيرورة المفهوم الاجتماعية وتسلسل نسبه[1].

في اللغة العربية، يرجع أصل كلمة ثقافة إلى الجذر ثَقِفَ، والذي يعني سرعة التعلم والحذق والمهارة[2]، وهذا الجذر يقارب كثيرا مفهوم الثقافة باستخداماته المعاصرة، على خلاف الحال في

[1]- دينيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ص 16.

[2]- ابن منظور: لسان العرب، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1998، ص 492.

اللغات اللاتينية، أين ترتبط أصول كلمة ثقافة Culture ارتباطا وثيقا بكلمة cultura اللاتينية، والتي كانت تعني على الغالب العناية الموكولة للحقل والماشية وقسمة الأرض المحروثة، وبقي هذا الأصل جاثما على معنى الثقافة إلى غاية بزوغ عصر الأنوار، أين تمت عملية إحلال الكلمة بمعنى جديد، ولكنه ليس بعيدا عن المعنى المرتبط بالفلاحة، إذ انتقل من تربية الحيوانات ورعاية الأرض إلى تربية البشر ورعاية الأفكار، وبالتدريج أصبح ينظر إلى الثقافة كمعارض مفهومي للطبيعة[1]. لقد تم التخلص هنا من النظرة البيولوجية الاختزالية للإنسان من خلال الخروج عن المنظور التطوري الذي صاغه داروين، وبفضل الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا في مقاربتهما للثقافة أصبح بالإمكان الحديث عن الإنسان بعيدا عن الضغوط الطبيعية ودخوله عصر الثقافة[2].

بالتدريج، أصبح مفهوم الثقافة ملازما لمعنى التربية الفكرية وإنتاج الأفكار، أو على مقربة من ذلك ارتبط على نحو ما بكل الأنشطة التي تساهم في رفع مستوى الفرد العلمي والفكري، ولهذا نجد أن المفهوم الشائع اجتماعيا للثقافة والمستخدم في الحياة اليومية يحيل أكثر إلى امتلاك الفرد للمعارف والمعلومات حول مجالات عديدة. لكن بين المفهوم الشائع والعامي الذي ينحدر من الأصل اللغوي اللاتيني لكلمة culture وبين المفاهيم العلمية التي بدأت بالبزوغ، يمكن أن نلاحظ تأثير الفيلسوف الألماني يوهان غوتفريد هردر Johann Gotfried Herder، فمن خلال نقده الحاد لاكتساح المفهوم الفرنسي للثقافة، وهو في رأيه انعكاس لحالة الانبهار بالثقافة الأرستقراطية الفرنسية في مقابل الخصوصية البارزة لثقافة الشعب الألماني، يدافع هردر عما يسميه تنوع الثقافات في مواجهة كونية الأنوار الفرنسية، وبالتالي فإن هردر هو من فتح عيوننا على الثقافات –يقول دينيس كوش- وهو كذلك رائد مفهوم الثقافة النسبي[3].

يمكن القول بأن تأثير مفهوم هردر للثقافة هو حجر الأساس الذي بنيت عليه كل تصورات الفلاسفة الألمان الذين تلوه، إذ تطور ما يمكن تسميته بفكر ألماني ذي نزعة قومية يؤكد على ما سيعرف لاحقا بالخصوصيات الثقافية للجماعات، وسيكون لهذه الخصوصيات إسهام بارز في نشأة مفهوم أنثروبولوجي يتعارض والتصور العامي الذي يوحي بأن الثقافة واحدة، وأنها باختصار تربية للبشر عموما على الفن والآداب. رغم ذلك، لن يجد هذا المفهوم طريقا سهلة للقبول.

---

[1]- دينيس كوش: المرجع السابق، ص 17.

[2]- - نيكولا جورنه: بين الكوني والخصوصي: البحث عن البدايات، طبيعة الثقافة، تشييد الهويات، ترجمة: إياس حسن، دار الفرقد، دمشق، 2014، ص 29.

[3]- دينيس كوش: المرجع السابق، ص 24.

إن مفهوم الثقافة في مجال الأنثروبولوجيا، يقول كليفورد غيرتز Clifford Geertz، ينتمي إلى خانة ما تسميه سوزان لانغر Susane Langer "موضة الأفكار الكبيرة"، وهي على حد تعبيره أفكار يجري تقبلها بحماس كبير في الأوساط الأكاديمية على اعتبار أنها تعد بحل مشكلات كبيرة، ولكن بمجرد أن نألف وجودها حتى تقل آمالنا عنها وتصبح بالفعل محتاجة لتوضيحات أكثر، بل أن من يدافعون عن كونها حلا لكل مشكلات الكون يصبحون قلة قليلة[1].

يكفي أن نشير هنا إلى أن تلقي مفهوم الثقافة مثلما صاغه الأنثروبولوجيون في بدايات تشكل هذا العلم لقي صدى كبيرا وصل إلى حد أن الباحثين ألفريد كروبر Alfred Kroeber وكلايد كلوكهون Clyde Kluckhohn شبها فكرة الثقافة هذه بفكرة الجاذبة في حقل الفيزياء أو المرض بالنسبة للطب أو التطور بالنسبة للبيولوجيا[2].

وعادة ما يعتبر المشتغلون في حقل الأنثروبولوجيا التعريف الذي يقدم البريطاني إدوارد تايلور Edward Taylor بمثابة التعريف المرجعي الذي تستند إليه أغلب الدراسات، ونجد لهذا التعريف صدى في أغلب الدراسات التي تهتم بموضوع الثقافة، ويذهب تايلور في تعريفه إلى أن الثقافة هي "الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع"[3].

سوف نلاحظ بسهولة بأن استخدام كلمة "كل" من طرف تايلور هو محاولة للتأكيد على كليانية مفهوم الثقافة، أي اشتماله على الكثير من عناصر الحياة اليومية التي قد يقصيها البعض من خانة مفهوم الثقافة نتيجة الاستناد في بعض لحظات تاريخ أوروبا إلى المفاهيم الطبقية والعرقية للثقافة، ومحاولة إبعاد المكونات الثقافية الأخرى التي لا تعترف الطبقات العليا بإمكانية اعتبارها ثقافية على نحو ما، ولكن بالمقابل فإن تمطيط مفهوم الثقافة بالطريقة التي اعتمدها تايلور لاستيعاب مكونات الثقافة سرعان ما يجد نفسه عاجزا عن التحديد الدقيق لماهية الثقافة.

لهذا، ينتقد كليفورد غيرتز بشكل لاذع هذا التعريف على الرغم من صيته الذائع، ويذهب إلى أن تايلور بتعريفه للثقافة على هذا النحو إنما يعمينا على أشياء، ولا يوضحها، بل وإنه يصف هذا النوع من التنظير بأنه مختلط ويضعنا في ورطة[4].

---

[1]- كليفورد غيرتز: تأويل الثقافات: مقالات مختارة، ترجمة: محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص ص 79-80.

[2]- آدم كوبر: الثقافة: التفسير الأنثروبولوجي، ترجمة: تراجي فتحي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008، ص 12.

[3]- Edward Taylor: Primitive culture: Researches into the development of mythology, philosophy, religion , art and custom, J. Murray, London, 1871, p. 1.

[4]- كليفورد غيرتز: المرجع السابق، ص 81.

وإضافة إلى ذلك، سوف يظهر قصر تعريف تايلور للثقافة في مستوى آخر ، وبالتحديد فيما يتعلق باعتباره أن الثقافة هي محل اكتساب، لا يتعدى دور الفرد في إطارها سوى استخدامها ضمن الأطر التي يرسمها المجتمع وإعادة إنتاجها من خلال فعل التنشئة، وهذا التصور اللاتاريخي للثقافة يضعنا أمام مشكلتين اثنتين: الأولى تسائل الأصل الأول لها، والثانية تبتغي فهما لتفسير ما يمكن تسميته بـ"التغيّر الثقافي" أو "التطور الثقافي".

بالنسبة للمشكلة الأولى، فالقول بكون الثقافة مكتسبة من قبل الفرد يحيلنا إلى سلسلة تاريخية جرى فيها تناقل المكونات الثقافية من جيل إلى جيل، وسيكون من الصعب تحديد درجة تطابق الاكتساب البين-جيلي من جهة وتحديد نقطة انطلاق التشكل الأصلي للثقافة من جهة ثانية. أما فيما يتعلق بالمشكلة الثانية، فإن افتراض أن الثقافة مكتسبة سوف يضعنا في ورطتين: الأولى نفي صفة التطور على الثقافة رغم أن الشواهد التاريخية تؤكد وجود تطور كبير في المكونات الثقافية، والثانية كيفية تفسير هذا التطور علميا إذا ما قبلناه كحقيقة تاريخية قائمة.

2- مشكلة مفهوم الثقافة في الدراسات الثقافية:

تتبنى الدراسات الثقافية المفهوم الأنثروبولوجي للثقافة وتحاول البحث أكثر ضمن أبعاده الديناميكية، وذلك أمام محك مقولتي التطور والإنتاج الثقافي، لذا نجد من أهم المفاهيم في الدراسات الثقافية ما قدمه أحد روادها، ريموند وليامز، حيث يقول بأن الثقافة هي "عملية عامة من التطور العقلي والروحي والجمالي"[1]. تصدى أنصار الدراسات الثقافية المفاهيم الطبقية للثقافة ورفضوا فكرة ربطها بالرفعة الاجتماعية، فأي حديث عن ثقافة رفيعة في مقابل ثقافة وضيعة هو حديث لا يصح من ناحية المعرفة، وقد كانت أعمال ماثيو أرنولد محلّ نقد شديد في مجال الدراسات الثقافية بسبب دفاعه عن مفهوم للثقافة باعتبارها أفضل ما قيل وإشادته بما يسميه بالثقافة الرفيعة.

بالإشارة إلى ريموند ويليامز دائما، فإن مفهوم الثقافة بالنسبة له لطالما تجاوز الحدود التي يتوقف عندها الأنثروبولوجيون والأركيولوجيون الذين كان تركيزهم منصبا على اعتبار الثقافة شيئا ماديا، وعلى نحو ما يخلطون بين مفهومي الثقافة والحضارة، أما بالنسبة له فإن الثقافة كانت أقرب ما تكون إلى نظم رمزية أو دلالية[2]. لا موارية في وجود تأثر بالماركسية ضمن هذا

[1]- طوني بينيت وآخرون: مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2010، ص 227.

[2]- ريموند ويليامز: الكلمات المفاتيح، معجم ثقافي، ترجمة: نعيمان عثمان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص 122.

التصور، فالمقصود هنا هو ما كان ماركس يصفه بالبنية الفوقية في مقابل البنية التحتية التي تشتمل الجوانب المادية للحياة الاجتماعية، وبالتحديد وسائل الإنتاج، وبالتالي فإن الثقافة تصبح مقابل ذلك كل ما يتضمن إنتاج الأفكار والتصورات حول الحياة الاجتماعية.

كثيرا ما ينطلق أنصار الدراسات الثقافية من تعريف إدوارد تايلور للثقافة من منظور أنثروبولوجي للابتعاد عن تصورات أرنولد وأشباهه التي تتناول موضوع الصفوة وثقافتها في ظل المجتمع الجماهيري، وهم من وراء ذلك يريدون التأكيد على ضرورة الإيمان بالتنوع والاختلاف قبل الخوض في مفهوم الثقافة، وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى ما أحالنا إليه جوليان روز في مناقشته لأسطورة برج بابل الشهيرة، فبالإضافة إلى تأكيدها على وجود علاقة بين العمران والثقافة ودلالتها الواضحة عن التنوع الثقافي، يرى روز بأن المدينة هي الفضاء الذي نكتشف من خلاله بأن لنا ثقافة من جراء وعي الناس لوجود فروقات ثقافية بينهم[1]. تؤسس هذه الفروقات لفهمنا الفعلي للثقافة باعتبارها تصورا للعالم أو نظام حياة يختلف من جماعة إلى أخرى، ومن ثمة تسقط أي محاولة لاعتبار نظام حياة ما ثقافة رفيعة في مقابل نظام آخر أدنى مثلما كان أرنولد يتصور.

ويجمل كريس باركر مفهوم الثقافة الذي يستخدم في حقل الدراسات الثقافية بالقول بأن الثقافة هي طريقة حياة في كل مكوناتها: اللغة، التمثلات، الممارسات، الأدوات والمصنوعات، تنظيم الفضاء، السلطة، سواء كانت عليا أو دنيا، جماهيرية أو نخبوية، فهي في النهاية ثقافة طالما أنتجها الإنسان العادي إذا أخذنا بنظرة أنثروبولوجيين رواد على غرار مالينوفسكي أو رادكليف براون[2]. على هذه الشاكلة، تنطلق الدراسات الثقافية من فهمها للثقافة بوصفها عملية إنتاج نمط الحياة المتبع داخل الجماعة بعيدا عن هوية المنتِج لها، فالأهم هو اقتفاء أثر نمط الحياة ضمن ممارسات الأفراد في حياتهم اليومية والغايات منه، ولا يحضر السؤال حول منتِج هذا النمط إلا حين تتم الاستعانة بالأطروحات الماركسية حول السلطة، فعندها فقط يغدو السؤال عن هوية من يقف وراء إنتاج الثقافة وغاياته ذا قيمة.

وبالعودة إلى فكرة عمل الدراسات الثقافية على تركيز البحث أكثر في الأبعاد الديناميكية لمفهوم الثقافة، فإن الانطلاق من كون الثقافة هي أسلوب حياة يتم إنتاجه بشكل يومي وقد يرتبط بتوزيع السلطة داخل المجتمع، فإن المهتمين بالدراسات الثقافية شددوا على وجود صلة وثيقة

[1]- سمير الخليل: مرجع سابق، ص 81.

[2]- Chris Barker: The Sage dictionnary of cultural studies, Sage Publications, London, 2004, p. 44.

بين الثقافة والسياسة، ولذلك يجري تطوير الكثير من المفاهيم المرتبطة بالثقافة في سياق المجتمعات المعاصرة على غرار السياسات الثقافية، الإحياء الثقافي، التنمية الثقافية، التعددية الثقافية... وغير ذلك[1]، وكل هذه المصطلحات تتضمن بداخلها خيطا فكريا جامعا، وهو اعتبار الثقافة حقلا تتجسد فيه حقيقة التنوع من جهة، وحقيقة السلطة والتدافع والصراع من جهة ثانية، صراع ليس طبقيا فقط، وإنما جنسيا وإثنيا وعرقيا كذلك، فالدراسات الثقافية استفادت من أفكار فوكو حول السلطة لا باعتبارها قمعا، وإنما كإستراتيجية تتغلغل داخل النسيج الاجتماعي أفقيا وعموديا ولا تنحصر فقط عند الدولة[2].

تستند الدراسات الثقافية في هذا الحكم إلى تراث نظري كبير مستمد من مجددي النظرية الماركسية، وفي مقدمتهم الفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي الذي أمد الدراسات الثقافية بأفكار كثيرة حول طبيعة الارتباط بين فعل الهيمنة ومجال الثقافة، وكذا أعمال الفيلسوف الفرنسي لويس ألتوسير حين استفاض في الحديث عن الأدوات الإيديولوجية التي تستخدم الثقافة كوسيلة للتغلب ضمن الصراع الإيديولوجي داخل المجتمع. ينبغي الإشارة إلى الفهم الجديد للصراع الذي تقاربه الدراسات الثقافية يتجاوز النظرة الطبقية التي صاغها ماركس، ويبلور خلفيات جديدة للصراع مثل الإثنيات والأقليات والثقافات الفرعية والجندر والعرق، ولهذا أفرزت الدراسات الثقافية أجندة بحث جديدة غنية للغاية.

قراءات إضافية:

- آدم كوبر: الثقافة: التفسير الأنثروبولوجي، ترجمة: تراجي فتحي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008

- سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2016.

- نيكولا جورنه: بين الكوني والخصوصي: البحث عن البدايات، طبيعة الثقافة، تشييد الهويات، ترجمة: إياس حسن، دار الفرقد، دمشق، 2014.

- John Hartley: Communication, cultural and media studies : The key concepts, Routledge, London, 2002.

- Martyn Hammersley: The concept of culture, Palgrave McMillan, London, 2019.

[1] - طوني بينيت وآخرون: مرجع سابق، ص 226.

[2] - محمد بوعزة: مرجع سابق، ص 41.

المحاضرة الرابعة:

تفسير الثقافة والصراع الدائم حول المعنى (2).

تمهيد:

كثيرا ما يجد نقاد الدراسات الثقافية صعوبة في تصنيف هذه الأخيرة في مقابل النظرية الماركسية فتارة توصف بأنها صيحة مناهضة لأفكار ماركس التقليدية حول الجدلية المادية وسوء تقدير دور الثقافة في صناعة التاريخ، وتارة أخرى تجد ممارسي الدراسات الثقافية يستعينون بالكثير من تراث ماركس للبرهنة على أفكارهم، وتارة ثالثة –وهي الأغلب- تجدهم ينهلون من أعمال مجددي الفكر الماركسي الكثير من الأفكار الأساسية بخصوص دور الثقافة في الحياة اليومية.

لقد سعت الدراسات الثقافية من حيث كونها تيارا بحثيا جديدا وجامعا لكل ما سبقه من أفكار مشتتة إلى بناء تصور ديناميكي يفسر الفاعلية الحقيقية للثقافة ضمن الحياة اليومية للبشر، ومدى إسهامها فعليا في التأثير على حياة الناس أو على حركة التاريخ برمتها، ولم يخرج هذا التصور اليساري في النهاية عن الإطار النظري الماركسي في عمومه من حيث تأكيده على ارتباط الثقافة بحركية الصراع داخل المجتمع، ومهما اتخذ هذا الصراع من أشكال ففي النهاية هناك إجماع على أن الثقافة كبنية أو كممارسة متجددة باستمرار تبقى إحدى أهم أدوات إدارة الصراعات متعددة الاتجاهات داخل الجماعات والمجتمعات المعاصرة.

1- التصورات الماركسية وما بعد الماركسية للصراع حول المعنى:

تطرح مسألة الصراع حول المعنى بحدة داخل هيكل النظرية الماركسية، ونجد إحالات مباشرة لها في مختلف الأعمال التي قدمها ماركس، وبالخصوص في كتابه "مقدمة في نقد الاقتصاد السياسي" أين يبرز بوضوح تصوره لدور البنية الفوقية ضمن النسيج الاجتماعي للنظام الرأسمالي. يتحدث روبرت كينغ ميرتون في نقده لماركس عما يصفه بـ"وظائف كامنة" يمكن أن تلعبها الثقافة داخل هيكل فلسفي ماركسي يعطي الأولوية في حركة التاريخ للبنية التحتية الممثلة في قوى الإنتاج والعلاقات الاقتصادية.

يسترسل ميرتون في هذا السياق بالإشارة إلى أن ماركس لطالما أشار إلى ما يمكن تسميته بـ"الوظيفة الانحيازية" للثقافة، فلا ينتظر أبدا من المعرفة التي تنشأ من وراء توزيع قوى الإنتاج على الطريقة الرأسمالية أو الإقطاعية إلا أن تقف إلى جانب الحفاظ على استقرار هذا التوزيع، وفي كل الأحوال فإنها تعمي أعين المستغِلِّين والمستغَلّين على حد سواء عن حقيقة التجاوزات في

التوزيع وبناء اعتقادات لدى الطرفين بأن ما هو عليه الوضع يجب أن يبقى كما هو[1]. وفقا لهذا التصور، فإن الحديث المتكرر من قبل الماركسيين عن تزييف الوعي لا يعني بالضرورة وعي الطبقة البروليتارية وحسب، بل وحتى الطبقة المتحكمة تفقد وعيها وتنغمس في التفسير الخاطئ للواقع وتعتبره حقيقة، وبالتدريج تقع في فخّ الصنمية le fétichisme. كان ماركس قد أطلق وصف الصنمية بشكل متكرر في أعماله المختلفة، ولكن جورج لوكاش كان أحسن الماركسيين شرحا لهذا الوصف، وهي في نظره تعني أن يجد الناس أنفسهم يعيشون في عالم من الأشياء والعلاقات التي تظهر وكأنها مستقلة عنهم أكثر من كونها نتاجا لتجارب حياتهم الاجتماعية أو ناتجة عن سيرورة تاريخية[2]. لا تخرج الثقافة عن قبضة هذا الحكم، وبالرغم مما تمثله في حياة البشر فإنها تحت منطق الرأسمالية تخضع لنفس المنطق الذي يحكم حالة السلعة.

هكذا بالضبط ينشأ الصراع حول المعنى في نظر الماركسيين، وماركس نفسه يكتب في "رأس المال" بشكل صريح: "إن الطبقة التي تمتلك وسائل الإنتاج المادي تحت تصرفها لديها سيطرة في نفس الوقت على وسائل الإنتاج الفكري، حتى يمكنها أن تخضع لها أفكار أولئك الذين يفتقرون إلى أدوات الإنتاج العقلي"[3]. تستحيل مجمل الأفكار المتداولة في المجتمع ذي الطبيعة البرجوازية إلى مجرّد غطاء تختفي من ورائه حقيقة الصراع الطبقي من وجهة نظر ماركس، وهو الصراع الذي يبدأ من معضلة التوزيع غير العادل لوسائل وقوى الإنتاج، ولكنه ينقلب إلى صراع حول التصور الصحيح للوضع القائم.

تبقى مشكلة ماركس بالنسبة لأتباعه المحدثين تكمن في تحجيمه لدور الثقافة بالمقارنة مع تأثير العوامل الاقتصادية في صناعة التاريخ، وإذا كان الصراع حتميا في نظره فإن أسباب هذا الصراع وغاياته النهائية تبقى جاثمة داخل النسق الاقتصادي، ولهذا فقد تصدى الماركسيون الجدد لهذا التفسير الضيق وأقاموا بدائل له تعتبر الثقافة أو البنية الفوقية في قاموس مصلحات ماركس، محركا أساسيا للتطور الاجتماعي. ويعزى إلى جورج لوكاش الدور الأكبر في هذا التحول، فقد غيّر من وجهة النظر نحو ما يسمى "مادية ثقافية" بتعبير ريموند ويليامز، والمقصود هو تجاوز المادية

[1]- علي سيد الصاوي (محرر ومترجم): نظرية الثقافة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997، ص ص 230-231.

[2]- Bryan Turner: Op. Cit, p. 503.

[3]- علي سيد الصاوي: مرجع سابق، ص 234.

الميكانيكية التي قال بها ماركس والإيمان بنوع من الاستقلال النسبي للإنتاج الثقافي رغم ارتباطه الدائم بشروطه الاقتصادية[1].

يمكن في هذا السياق النظر فيما قدمه الكاتب الإيطالي أنطونيو غرامشي، أين أعطى لمفهوم الهيمنة بوصفها عملية ثقافية مكانة مركزية في تحليل التطور الاجتماعي. نظر غرامشي للثقافة باعتبارها نظاما يمزج بين الفلسفة بمعناها النخبوي وبين الحس المشترك العام الذي يشترك فيه الجميع بما فيهم البسطاء من الناس، وتكون السياسة بمثابة الخيط الرابط بين الاثنين، ذلك أنها تسعى لتوحيد تفكير المفكرين والبسطاء من الناس من أجل تغيير العالم والانتصار في صراع الهيمنة السياسية[2]. ويستلهم غرامشي من تراث المثالية التاريخية الإيطالية ليعيد قراءة الفكرة الماركسية القائلة بأن الأفكار المهيمنة في كل عصر هي أفكار الطبقة المتحكمة، ويضيف لها بأن نشأة الأنظمة الديكتاتورية والفاشية كانت بسبب أنها تهيمن من خلال أفكارها وتدفع الأفكار المعارضة لها إلى الصمت، ولا يتم كسر هذا الصمت إلا من خلال الدور الثقافي للمجتمع المدني الذي يتولى عبر الثقافة العضوية اختراق مساعي الهيمنة والتصدي لها[3].

وتقع هذه الفكرة على مقربة مما قدمه أحد أقطاب مدرسة فرانكفورت، وهو هربرت ماركيوز، الذي افترض أن أحد أهم أدوات مواجهة الهيمنة الثقافية البرجوازية هو الثقافة المضادة التي تتجسد عبر الفن القريب من واقع الطبقة العاملة[4]. لا يخرج الماركسيون الجدد بطبيعة الحال عن التصور الكبير الذي أنشأته الماركسية عن حقيقة الصراع القائم على الدوام حول المعنى الحقيقي للعالم وحول التصور الأمثل له، حتى وإن اختلف موقع الثقافة بالنسبة لهم من هذا الصراع.

وتحتل الثقافة بوصفها ساحة وأداة للصراع حول المعنى مكانا هاما ضمن أعمال الفلاسفة الفرنسيين الذين يدرجون في خانة ما يسمى بـ"النظرية الفرنسي"، ويتعلق الأمر هنا بأسماء على غرار لويس ألتوسير، رولان بارت، بيير بورديو وميشال فوكو وغيرهم، ويشترك كل هؤلاء في اعتمادهم على ما يمكن تسميته بـ"ماركسية ما بعد بنيوية" في تفسيرهم للصراعات الثقافية في المجتمعات الغربية المعاصرة، ويعد عمل ألتوسير حول الإيديولوجية رائدا في هذا الصدد على

[1]- محمد بوعزة: مرجع سابق، ص 55.

[2]- أنطونيو غرامشي: الثقافة والهيمنة الإيديولوجية، انظر: خالدة حامد: مرجع سابق، ص ص 114-115.

[3]- Thomas Bates: "Gramsci and the theory of hegemony", Journal Of The History Of Ideas, Vol. 36, N°. 2, 1975, p-p. 351-353.

[4]- Finn Bowring: "Repressive desublimation and consumer culture: Re-evaluating Herbert Marcuse", New Formations, Issue. 75, 2012, p. 17.

اعتبار أنه أعاد صياغة نظرية ماركس التي اعتبرت الإيديولوجية مجرد انعكاس للواقع الاجتماعي داخل الوعي وحولها إلى مفهوم جديد يعتبرها نظاما من العلاقات الاجتماعية التي لا تقل واقعية عن مثيلتها الاقتصادية أو السياسية[1].

2- موقع الثقافة من الصراع حول المعنى:

لا يمكن فهم موقع الثقافة من إشكالية الصراع على المعنى من دون التطرق إلى ما يمكن وصفه بـ"الدور السياسي للثقافة". لقد تمّ التطرق إلى هذا الدور على شكل أو آخر في أعمال العديد من الباحثين سواء بشكل صريح أو على نحو تلميحي، وسواء التقينا بهذا الدور مسمى هكذا أو مأخوذا على تسمية أخرى فإن الأمر يتعلق في النهاية بمراجعة للفكر الماركسية المقزمة لدور العناصر الفكرية في تحريك المجتمع مقارنة بالعناصر الاقتصادية والمادية.

لقد وجد الرواد الأوائل للدراسات الثقافية، وبالتحديد ريموند ويليامز وستوارت هال، الكثير من الصعوبات في تقديم تحديد دقيق لما قد تعنيه الثقافة، وذلك بالنظر إلى الخلفية السياسية لعملهما، فقبل كل شيء هما ينتميان لليسار البريطاني. يبرز تيري إيغلتون على سبيل المثال كيف أن ويليامز في تعريفه للثقافة في كتابه "الثقافة والمجتمع" قدم عرضا لأربعة تعاريف مختلفة: باعتبارها عادة فردية للعقل، حالة من التطور الفكري للمجتمع، باعتبارها فنونا، ثم باعتبارها مجموع أسلوب حياة جماعة من الناس، ولكنه ولدوافع سياسية أدار ظهره لكونها حالة من التطور الفكري وفنونا واختار التعريف الرابع الذي يعتبرها أسلوب حياة جماعة من الناس فقط لكي لا يجازف باستثناء الطبقة العاملة من هذا التصنيف[2].

يمكن القول بأن نشأة الدراسات الثقافية كتيار مستقل كانت وبالأساس ردة فعل على شكل من أشكال التنظير للثقافة الذي كان يعلي من شأن ثقافة على حساب أخرى، ويمكن الإشارة هنا إلى ما كتبه ماتيو أرنولد وليفيز حول الثقافة العليا أو حول النموذج الثقافي الراقي. كان أرنولد يعتبر الثقافة هي "أفضل ما قيل"، وهي كذلك السعي نحو الامتياز أو الاكتمال، حيث يقول في هذا الشأن: "إن الاكتمال الذي تتصوره الثقافة لا يكون ممكنا إذا كان الفرد معزولا، إنه مجبر تحت وطأة الألم والضعف في حالة عصيانه، أن يجاري الآخرين في مسيرته نحو الاكتمال"[3]. رفضت الدراسات الثقافية مثل هذا التصور للثقافة على اعتبار أن أرنولد كان يلغي أو ينفي وجود تعدد

---

[1]- Paul Hirst: "Althusser and the theory of ideology", Economy & Society, Vol. 5, N°. 4, 1976, p. 385.

[2]- تيري إيغلتون: فكرة الثقافة، ترجمة: شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص 54.

[3]- Matthew Arnold: Culture and anarchy, Oxford University Press, New York, 2006, p. 36.

في مراكز الإنتاج الثقافي، فافتراض وجود نموذج ثقافي يجب الارتقاء إليه من طرف الجميع ليس سوى وجها آخر للدكتاتورية السياسية التي تجعلها الرأسمالية هدفا لها، والأصحّ على خلاف ذلك هو ما قامت به الدراسات الثقافية من فتح للآفاق لدراسة كل أشكال الإنتاج الثقافي الموجودة في المجتمع، وإذا كان الصراع حول المعنى حتمية فإن عملية إنتاج المعنى من خلال الثقافة مفتوحة أمام الجميع.

وفي الحقيقة فإن الدراسات الثقافية استفادت كثيرا من أفكار ميشال فوكو في تجاوز هذه المعضلة، فافتراض أن الثقافة جوهرانية مثلما تصور أرنولد لا يستقيم والواقع الذي يقول بأن الهويات المنتجة للثقافة هي تكوينات خطابية تنتج المعنى في لحظة إنتاج الخطاب، وتتحول الذات بفعل ذلك إلى أثر للخطاب، وليس العكس[1]. تحت تأثير أفكار فوكو، فتحت الدراسات الثقافية المجال للبحث في ما أصبح يعرف بالثقافات الفرعية، وتجاوزت المفهوم الوحيد للثقافة، وانطلقت من افتراض أن بناء المعنى هو عملية تمارس، بل وتمارس بشكل يومي ولحظي منفتح على الجميع، وداخل هذه العملية تتجسد الصراعات حول السلطة.

إن الأمر يتجاوز الإشكالية التقليدية التي أثيرت من جراء كتابات أرنولد حول الثقافة النخبوية، وما طورته الدراسات الثقافية من رؤى دفاعية عن الثقافة الشعبية باعتبارها شكلا من أشكال المقاومة، بحيث أصبح الاهتمام منصبا على توجيه البحث نحو مناطق الصراع المختلفة التي تتجاوز التصور الماركسي الطبقي، ففي الولايات المتحدة أصبح البحث في مواضيع الهوية والعرق والجنوسة والأقليات مادة رمادية مهمة لمزاولي الدراسات الثقافية.

وعلى الرغم من أن الحديث عن دور سياسي للثقافة يلغي دورها الأصلي مثلما يقول تيري إيغلتون، إلا أن الدراسات الثقافية نسفت هذه المقولة واعتبرتها مخالفة للواقع، فغالبا ما يتم النظر مثلا إلى الثقافة الشعبية باعتبارها خفيفة، تافهة، سريعة الاستهلاك وغير ذلك، وهذه الصفات ناجمة بالأساس عن المقارنة مع الثقافة العليا التي توصف بأنها طويلة وتساهم في الحفظ الثقافي، ولكن يجب الاعتراف في النهاية مع أنصار "الشعبوية الثقافية" بأن الثقافة الشعبية مضادة للسلطة حتى لو أنتجها من لا يملكون تعليما جيدا، في مواجهة الثقافة العليا التي تنتجها الطبقة المتوسطة[2].

---

[1]- محمد بوعزة: مرجع سابق، ص 61.

[2]- سايمون ديورنغ: الدراسات الثقافية، مقدمة نقدية، ترجمة: ممدوح عمران، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2015،ص 310.

ينبغي الاقتناع في الأخير بأن الدراسات الثقافية عالجت المشكلة السياسية للثقافة بشكل مختلف عما تتصوره الماركسية الكلاسيكية، فهي تقترب من تصوّر ميشال فوكو للديناميكيات الخطابية حين تعتبر عمليات الإنتاج الثقافي بتشعباتها وفوضويتها وتناقضاتها جزءا لا يتجزأ من النظام المعرفي العام للثقافة[1]، وهذه الفكرة هي أحد أهم أسس ما بات يعرف بعصر ما بعد الحداثة، وإذا كانت الحداثة قد استقرّت في سنوات ذيوع أجهزة الإعلام الجماهيري وبروز نمط الثقافة الاستهلاكية وأثارت تحفظا واسعا في البداية، فإن الشعبية الكبيرة والجارفة التي باتت تستقطبها منتجاتها لا بد أن يغيّر وجهات النظر.

قراءات إضافية:

- تيري إيغلتون: فكرة الثقافة، ترجمة: شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.

- سيمون ديورنغ: الدراسات الثقافية، مقدمة نقدية، ترجمة: ممدوح عمران، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2015.

- مبارك الجابري (محرر): خارج الأسوار: أوراق في الدراسات الثقافية، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، مسقط، 2022.

- Andrew Tudor: Decoding culture: Theory and methode in cultural studies, Sage Publications, London, 1999.

- Martyn Hammersley: The concept of culture, Palgrave McMillan, London, 2019.

[1]- محمد بوعزة: مرجع سابق، ص 32.